الركن الخامس من أركان الإيمان
الإيمان باليوم الآخر

لحظة الموت والانتقال إلىٰ الدار الآخرة:

يبدأ اليوم الآخر بالنسبة للإنسان عند لحظة موته؛ حيث ينتقل من عالم الدنيا إلىٰ عالمٍ آخَر، عالمٍ محجوبة حقائقه عن حواسنا، وإن كنا نعلمها بالخبر الصادق عن النبي ﷺ.

ولئن كان يوم القيامة يُسمىٰ في القرآن الكريم (الساعة) وذلك في آيات كثيرة، فإن النبي ﷺ قد جعل لحظة موت الإنسان ساعةً بالنسبة إليه، كما في صحيح البخاري عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متىٰ الساعة؟ فكان ينظر إلىٰ أصغرهم فيقول: «**إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتىٰ تقوم عليكم ساعتكم**». قال هشام: يعني موتهم[1]

(١) صحيح البخاري (٦٥١١)

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا علىٰ الحديث: (وذلك أنّ من مات فقد دخل في حكم القيامة، فعالم البرزخ قريب من عالم يوم القيامة، وفيه من الدنيا أيضًا، ولكن هو أشبه بالآخرة، ثم إذا تناهت المدة المضروبة للدنيا، أمر الله بقيام الساعة، فيُجْمَعُ الأولون والآخرون لميقات يوم معلوم)[1]

وعند تلك اللحظة الرهيبة العظيمة تأتي البشرىٰ للمؤمن برضوان الله وجنته، فيقال له: لا تخف مما أمامك، ولا تحزن علىٰ ما وراءك. وهي اللحظة التي يكون فيها أهله حوله يبكون ويتألمون لفراقه، وهم لا يعلمون أنه فرح سعيد مبتهج مطمئن، مشتاق للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». قالت عائشة، أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت! قال: «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**»[2]. فهذا من أعظم المبشرات وقد أخبر الله تعالىٰ عن ذلك في سورة فصلت، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٩٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٧)

وكما أن هذه اللحظة هي البشرىٰ الكبرىٰ بالنسبة للمؤمن -ولا تنافسها بشرىٰ إلا حين يستلم كتابه بيمينه يوم القيامة-، فإنها -في نفس الوقت- لحظة عصيبة مؤلمة شديدة علىٰ المنافق والكافر والفاجر، فهو في تلك الحال التي يحتاج الإنسان فيها إلىٰ أدنىٰ بصيص ضوء أو أمل، تأتيه النذارة بأن الله ساخط عليه وأن ما أمامه إنما هو العذاب! كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] فالملائكة تقول لهم عند الموت: اليوم تجزون العذاب! يا إلهي! بل إن الأمر أشد من ذلك، فمعنىٰ قول الله: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب، والعذاب، كما قال المفسرون وكما شهد له القرآن في مواضع أخرىٰ. فيضرب المجرم عند الموت، ويُبشر بالعذاب، مع حزنه علىٰ ما فاته من الدنيا، وقلقه أصلا من الموت .. أي لحظة تلك! أي شدة وأي صعوبة وأي بؤس وأي شقاء؟! ولذلك فإن العُبّاد والصالحين كانوا يعملون لتلك اللحظة وما بعدها كثيرًا، ويقومون لأجلها بالليل يصلّون قانتين لله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وكما قال سبحانه -كذلك-: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

اللهم ارحمنا يا رب وأحسن ختامنا يا حليم يا كريم.

ولـدتـك أمـك يـا ابـن آدم بـاكـيـًا
والـنـاس حـولـك يـضـحـكـون سـرورا
فـاعـمـل لـنـفـسـك أن تـكـون إذا بـكـوا
فـي يـوم مـوتـك ضـاحـكًـا مـسـرورا

وهذه بداية رحلة الروح، في عالم البرزخ..

القبر: فتنته ونعيمه وعذابه:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإنسان بعد موته وقبل بعثه -أي في مرحلة البرزخ حين يكون في قبره- فإنه لا يعيش مرحلة فراغ، بل إنه يمر برحلة طويلة للروح إما نعيم وإما شقاء، وأنه أول ما يوضع في قبره يتعرض للسؤال والامتحان من جهة ملائكة مخصصة لذلك، وأنه سيجيب بحسب سيره في الحياة الدنيا، وأنه بناء علىٰ هذا الجواب سيعيش بقية حياته البرزخية في القبر.

وقد يظن الإنسان أن الأمر سهل لأنه يعرف الأسئلة مسبقا ويحفظ الجواب، ولكن الحقيقة أن الإجابة هناك لن تكون بالحفظ، بل بما كان يعتقده ويؤمن به.

وفي تلك اللحظة حين يُسأل الإنسان، يكون الأهل والأصحاب والأقارب والأحباب قد نفضوا أيديهم من تراب القبر، وتحلقوا حوله يبكون ويدعون، هذا في العالم الظاهر فوق

الأرض، أما في العالم الباطن تحت الأرض فهنالك أمور وأحوال أخرىٰ، هم رأوا جثمانًا وترابًا ولحدًا وكفنًا، رأوا أن ذلك نهاية المشهد، ولكن في الحقيقة إنما هو البداية.

بداية رحلة أبدية خالدة، أولها سؤال وفتنة وامتحان، ثم إما نور وفسحة ونافذة إلىٰ الجنة، وإما ظلام وضيق ونافذة إلىٰ النيران، فالمرء -بعد سؤال الملكين- يظل إلىٰ يوم البعث إما منعما وإما معذبا، نسأل الله العافية.

وعند ذلك، وفي تلك البقعة الضيقة المظلمة تحت التراب، يتمنىٰ الإنسان أن يجد بصيص أمل لأي شيء، يتمنىٰ أن يرىٰ أي أثر لعمل صالح، يتمنىٰ أن يكون قد بقي له شيء يدر عليه الحسنات، فإن كان من أصحاب الصدقات الجارية -كحفر الآبار، أو بناء المساجد، أو إنشاء المدارس التي تربي الناس علىٰ الصلاح والأخلاق-، أو كان ممن ترك علمًا نافعًا -كالكتب أو الدروس المسجلة أو الدعاة الذين علمهم ورباهم[(١)]-، أو ترك ولدًا صالحًا يدعو له = فيا لسعده وهنائه، وهذا هو الذي خطط لمستقبله جيدًا.

ومن هنا ندرك جانبًا من جوانب أهمية: (الولد الصالح) إذْ في ذكره لفتة مهمة في الرد علىٰ الداعين إلىٰ ترك الزواج ونبذه، حيث لا يرون في الزواج سوىٰ مسؤوليات وأعباء، ويدعون في

---

(١) لعلهم يدخلون في العلم النافع الموَرّث أو في الصدقة الجارية.

الوقت ذاته إلىٰ إقامة العلاقات خارج إطار الزواج، لأنها تحقق اللذة بدون مسؤوليات. وهذه نظرة تختلف مع المبدأ الإسلامي في الزواج تماما، الذي ينظر إلىٰ الأسرة علىٰ أنها لبنة أساسية في المجتمع وأن صلاحها فيه صلاح للمجتمع، وتختلف مع نظرته للأبناء علىٰ أنهم مشروع عظيم يستمر إلىٰ ما بعد موت الإنسان.

نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا من هذه الأعمال الثلاثة أوفر الحظ والنصيب . . آمين.

من أدلة الكتاب والسنة علىٰ فتنة القبر ونعيمه وعذابه وما ينفعه:

وبعد العرض السابق لمرحلة القبر وفتنته سأسرد مجموعة من الأدلة علىٰ ما ذكرتُ، لأن هناك مِن أهل البدع من تعوّد الجحود حتىٰ جحدوا مثل هذه المعاني التي جاءت بها الشريعة.

١- قال الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وقد فسّر النبي ﷺ هذه الآية وبيّنها، كما أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما[(١)] عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله ﷻ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾».

(١) اللفظ لمسلم، والحديث في البخاري برقم (١٣٦٩) وفي مسلم برقم (٢٨٧١)

٢- أخرج الإمام البخاري في صحيحه[١] عن أنس بن مالك ﵁، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل -لمحمد ﷺ-؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة. فيراهما جميعا**». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلىٰ حديث أنس قال: «**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**».

٣- أخرج الإمام مسلم في صحيحه[٢] عن أبي هريرة ﵁ قال: إذا خرجت روح المؤمن؛ تلقاها ملكان يُصعدانها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلىٰ الله عليك، وعلىٰ جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلىٰ ربه ﷿، ثم يقول: انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل. قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من نتنها، وذكر لعنا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلىٰ آخر

---

(١) (١٣٧٤)

(٢) (٢٨٧٢)

الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه. هكذا.

٤- أخرج الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

النفخ في الصور:

في لحظة لا يعلم زمانها إلا الله ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بعد رحلة طويلة في البرزخ: يُنفخ في الصور بصوت عال مهيب صاخّ صارخ، فيبعث الله معه الناس من قبورهم، ويحشر الأجساد، ويحييها بعد الموت كما يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩] وكما خلق الإنسان أول مرة من العدم فإنه يعيد إحياءه وخلقه مرة أخرى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]

وهذه النفخة التي يبعث الله بها الناس ليست الأولى، بل الثانية، وأما الأولى فهي نفخة يُصعَق بها من في السماوات ومن في الأرض، فمن بقي من الناس حيًا وقت نهاية الدنيا

---

(١) (١٦٣١)

فسيموت بالصعقة الأولىٰ، ثم يمكثون ماشاء الله ثم تأتي النفخة الثانية وهي التي سماها الله تعالىٰ (الصاخّة) أي أنها من قوتها تصمّ الآذان أو تكاد.

قال الله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾.

البعث والحشر:

يخرج الناس من قبورهم ينظرون: ما هذا؟ من بعثنا من مرقدنا؟ ما الذي جرىٰ؟ يا إلهي! إنه لحقّ! إنه لصدق! هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون! ثم يلتفتون إلىٰ أنفسهم فإذا هم كما خلقهم الله أول مرة: حفاة عراة، غرلًا -غير مختونين- كما ثبت في الصحيح عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا**» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلىٰ بعض، قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلىٰ بعض**»(١)

وكل شيء حينذاك مهول مخوف، فالأرض غير الأرض، والنجوم متناثرة، والسماء منشقة، والبحار مشتعلة، والأرض تُزلزل، والحيوانات والسباع والأسود تُحشَر، والجبال الشم الرواسي تُفتّت: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٩)

فيكون الناس كالفراش المبثوث، ويفرّ الأخ من أخيه وأمه وأبيه، لأن لكلٍّ منهم يومئذ شأن يغنيه.

ثم يسمعون الداعي الذي يقودهم إلىٰ ساحة الحشر، فيسيرون خلفه كأنهم جراد منتشر ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي مسرعين إليه ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾ فيُجمع الناس ليوم عظيم ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يبرزون للواحد القهار ويقومون له؛ في ساحة لا جبال فيها ولا حُفر، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ولا مساكن فيها ولا أعلام، بل هي كما روىٰ سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**يُحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد**»(١) ومعنىٰ ليس فيها علم لأحد أي هي مستوية ليس فيها سكن ولا بناء ولا أثر لبشر.

فيُجمَع الناس في ساحة الحشر، كل الناس من لدن آدم إلىٰ نهاية الدنيا، فيقومون طويلا في موقف صعب، حيث تدنو الشمس، ويشتد الحر، فيكثر العرق الذي يرشح من الجسم، كما روىٰ ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «**يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠)

(٢) مسلم (٢٨٦٢)

الآمنون من الفزع الأكبر:

في ذلك المقام الذي يجتمع فيه الخوف والفزع والحر وطول المقام والعطش، تفيء ثلة من الناس إلىٰ ظلٍّ يُظلهم الله به، ظليل، بعيد عن هذه الشدة والهول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفىٰ حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»(١). وفي البخاري(٢) عن النبي ﷺ «**من أنظر معسرًا أظله الله في ظله**».

وقد ذكر الله في كتابه العزيز أن من عباده من سيُجنّب الفزع في ذلك اليوم، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وقال ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقال ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فاللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

الحوض:

في مقام الشدة ذاك، هناك موعد شريف للمؤمنين من أعظم المواعيد وأجلّها، ألا وهو: موعد لقاء النبي ﷺ علىٰ الحوض،

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)

(٢) (٣٠٠٦)

موعد اللقاء بأشرف الخلق عند مورد الماء الصافي العذب في يوم العطش الأكبر، كم هو جميل ذلك اللقاء، وكم تتقطع النفوس شوقًا إليه، وهو ﷺ كان يبشر أصحابه بذيّاك اللقاء، ويمنيهم به في بعض حديثه حين يذكر شيئا من الشدة التي ستلاقيهم، كما في قوله للأنصار: «**اصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض**»[(١)] وقوله حين زار شهداء أحد «**إن موعدكم الحوض**»[(٢)] فيا لله كيف سيكون ذاك اللقاء؟! وأما صفات الحوض، فقد أخبر بها النبي ﷺ وبشّر، فمن ذلك ما يلي:

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها، فلا يظمأ أبدا**». (البخاري ٦٥٧٩)

- وعن ثوبان أن نبي الله ﷺ سئل عن شراب الحوض، فقال: «**أشد بياضا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، يغتّ**[(٣)] **فيه ميزابان، يمدانه من الجنة؛ أحدهما من ذهب، والآخر من ورق**» (مسلم ٢٣١٠)

- وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال عن الحوض «**من ورده فشرب منه لم يظمأ بعدها أبدا**» (مسلم ٢٢٩٩)

---

(١) البخاري (٣٧٩٢)

(٢) البخاري (٤٠٤٢)

(٣) أي: يصبّ

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو علىٰ ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يُتأول، ولا يختلف فيه، قال القاضي: وحديثه متواتر النقل، رواه خلائق من الصحابة»[١].

طلب الشفاعة لبدء الحساب:

نعود إلىٰ المشهد العام العسر الصعب الشديد المرهق، فإن الناس يطول المقام بهم في ساحة الحشر ويبلغ الكرب بهم مبلغًا لا يطيقونه ولا يحتملونه، فيلتفتون باحثين عمن يمكن أن يشفع لهم إلىٰ ربهم ليبدأ الحساب، ويفصل لهم في أمرهم، فيعلمون حينذاك أن أسيادهم وملوكهم وكبراءهم في الدنيا لا حظّ لهم في الآخرة، وأن الذين لهم الحظ الأوفر هم الأنبياء، فيتوجهون إليهم طالبين إياهم أن يشفعوا إلىٰ ربهم لا في دخول الجنة، وإنما فقط لينتهي وقوفهم الطويل ذاك، وقد بيّن النبي ﷺ ما الذي سيجري حينها علىٰ وجه التفصيل، كما أخرج الإمام البخاري في صحيحه[٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟**

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٥٣) إحياء التراث

(٢) (٤٧١٢)

يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلىٰ ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم ﵇، فيقولون له: أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ إلىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ نوح. فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلىٰ أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي ﷿ قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها علىٰ قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم. فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ موسىٰ. فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله،

فضّلك الله برسالته، وبكلامه علىٰ الناس، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ ابن مريم فيأتون عيسىٰ، فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول عيسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -ولم يذكر ذنبا- نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ محمد ﷺ. فيأتون محمدا ﷺ، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي ﷻ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علىٰ أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة. وهم شركاء الناس فيما سوىٰ ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة، وحمير، أو كما بين مكة، وبصرىٰ»

بدء الحساب والقضاء بين الناس وعرض الأعمال والموازين والصحف:

يوم الحساب يوم طويل مليء بالأحداث والأهوال، فيه السوء علىٰ الكافرين، والخير للمؤمنين، فيه البكاء والعويل، والتغابن والثبور، وفيه كذلك: الفرح والسرور، والسعادة والحبور.

- يجيء الله تبارك وتعالىٰ بعد شفاعة النبي ﷺ ليقضي بين العباد: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفَجْر: ٢١-٢٣] وقال سبحانه ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾.

- يُؤتىٰ بجهنم تجرّها الملائكة فيراها الخلق ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ وقال النبي ﷺ: «**يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1]

- يحاسب الله البشر فردًا فردًا، كما قال سبحانه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرىٰ إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه،**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢)

فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر بين يديه، فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[1].

- والحساب أنواع: فمنه الحساب اليسير -وهو العرض- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهناك حساب عسير، تُعرض فيه الأعمال وتُناقش، كما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**». فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**»[2].

- ويكذب بعض الناس في النقاش مع ربهم ظانين أنهم سينجون منه! فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبِي هُرَيْرة[3] رضي الله عنه في سياق وصف النَّبيّ ﷺ للنقاش بين الله وعبده، قال: «**فيلقىٰ العبد فيقول: أي فُل**[4]**، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثاني، فيقول: أي فُل،**

(١) البخاري (٧٥١٢)
(٢) البخاري (٦٥٣٧)
(٣) (٢٩٦٨)
(٤) يعني: يا فلان

ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت. ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم علىٰ فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»

قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي موضع ثالث: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- يوضع الميزان فتوزن أعمال الإنسان؛ حسناته وسيئاته، كما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وقال سبحانه ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

- يُفاجأ الإنسان بأن كل شيء من عمله مكتوب، ألفاظه وأعماله ومعتقداته، خطواته ونظراته، سعيه وكدّه، هزله وجدّه، كل شيء يجده أمامه، كما قال الله سبحانه ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال سبحانه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

- ثم يُعطىٰ الإنسان كتابه، فإن أخذه بيمينه فيا لهنائه وسعده وفلاحه وفوزه وسعادته، ينطلق فرِحًا، مناديًا مسرورًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ وإن أعطيه بشماله فقد خسر كل شيء، وانتهىٰ بالنسبة إليه كل شيء، كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾

- ثم يؤخذ بأهل النار إلىٰ النار نسأل الله العافية.

الصراط:

بعد ساحة الحشر، وفي طريق التوجه إلىٰ الجنة، وبعد أن يُلقىٰ بأهل النار الذين هم أهلها في النار، يجتاز البقية من فوق الصراط الذي سيكون آخر تصفية وغربلة، وهو جسر مضروب علىٰ جهنم، يمر الناس فوقه كُلٌّ بحسب عمله وإيمانه، حتىٰ

يسقط بعضهم ممن لم يُسعفه عمله للإجازة والعبور. فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو**».

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق. قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمر البرق؟ قال: ألم تروا إلىٰ البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم علىٰ الصراط، يقول: رب، سلم سلم، حتىٰ تعجز أعمال العباد حتىٰ يجيء الرجل، فلا يستطيع السير إلا زحفا. قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده، إن قعر جهنم لسبعون خريفا**»[١]

(١) مسلم (١٩٥)